(١٣)

ليت لنا مثل الذي لقارون!!
الحمد لله أن ليس لنا مثل الذي لقارون!!
ابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة وهذا هو نصيبك من الدنيا

حديث الجمعة

٤ شوال ١٣٨٤ هـ - ٥ فبراير ١٩٦٥ م

ابتلاه ربه، فقتر عليه رزقه، فعاتب ربَّه، وقد ظن أنه قد أهانه، ولجأ إليه واستعانه، وعرفه مفتقرا، فناجاه معتَذرا.. فأجاب سؤله مختبرا، ووهبه ما أنَّ مفاتيحه ينوء بها العصبة أولو القُوة من كنوز الأرض. مَلَّكه كل شيء في دنياه، حتى يكف عن العَتب على مولاه.

ولكنه ما لبث أن قال إنه أوتيها على علم عنده، إنما هي من حسن تقديره، إنما هي من حكمته وسلامة تدبيره، إنما هي قدرته ومكنته، فدخل جنته وهو ظالم لنفسه، فقال ما أظن أن تبيد هذه أبدا، ولا أظن الساعة قائمة، أو أن أبدل خَيرا منها. هذا هو الإنسان في كنوده، وإن منكم إلا واردها بجحوده، يوم تبلى السرائر، فيعرفه ويكشفه ما له من قوة ولا ناصر.

إنها الدنيا، نعيشها مكرمين، أو نعيشها مهانين، وما نظن لنا شيئا بعدها ليوم الدين، فلنرفع فيها رؤوسنا، ولنبسط عليها سلطاننا، وليكن لنا في أرض شنغار قدوة، وقد قالوا فليتوحد جمعنا، ولتتحد لغتُنا، ولتتوحد مقاييسنا، ولنبني لنا مدينة، ولنُشِد لنا برجًا، ولنتخذ لنا اسما، شعارا ورسما، فلن تبيد دنيانا أبدا. فلنفرضنا عليها أمدا وأمدا بقاءً سرمدا، ولتكن غنائمنا منها نصيبا وجزاءً، ولنحسن في أمرنا فيها جهادا وبلاءً، فليس لنا غيرها في الوجود عطاءً وهناءً.

فمرت الأيام تبدو مملوكة الزمام له، وأنه هو مالكها، له ملك الأمصار، يعلو على الأرباب، يطغه المال، ولا يوقظه مشهوده بالعبر مما يرى من حال، وقد زعم لنفسه الربوبية العليا على الأرباب، ولم يدخل الأعلى واجب وجود في الحساب، فلم يشكره على نعمته، ولم يرعه في أمانته.

وقال ما أُوتيته إلا على عِلم عندي، وتفاخر أليس لي مُلك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي؟ وهذا وذاك، لا يقاس بي فأنا خير منه، أنا من الهِمة خُلقت، ومن العزيمة تواجدت، ومن القوة والقدرة، أُرضعت، فقُدِرت، والسبيل إليَّ للناس يسرت، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

فقال له حكيمهم: أكفرت بالذي خلقك؟ أكفرت بالذي خلقك من تراب، ثم من نطفة، ثم سواك رجلا؟ لولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله، اتقِ الله واستغفره، ومع قومك عامله. فأعرض ونأى بجانبه، ولم يأبه لصاحبه.

هكذا قضى الكتاب بما قضى، وهكذا حمل المبلغ لما بُلغ قصصا تعددت صوره، هو الحكمة.. قصصا بجوهره لألوانه هو الدستور وأركانه.. قصصا للفرد وجمعه هو الحياة.. وتصوير الحياة على ما هي الحياة.

يبتلي الله من يبتلي في أيام وكرات ابتلائه أو جزائه تمكينا وحرمانا من تمكين، غنى وحرمانا من غنى، استغناء يصحبه الافتقار، أو عطاء يلازمه الاضطرار.

إنما هي الحياة في أطوارها.. إنما هو الواقع بصوره.. إنما هي آيات الله بمعانيها في أنفس الناس بظاهر الناس.. إنها الكتاب فيما يحيط بالناس منهم بصورهم لمطالعتهم ومذاكراتهم.. إنها دنيا السر والسريرة، ودنيا الجهر والشهادة والبصيرة.. إنها أول مراحل الحياة الروحية لمفردات الناس بها، وآخر مراحل الحياة الروحية لمن يجتمع فيه لها أمرها، قائم نفسه لقائمه عليها، بقيومها لقائم ربه لها، برحمته به لأهلها.

إذا انعكس البصر والبصيرة في دنيا الداخل، فقرأ القارئ للنبأ أو حمل الحامل فتحدث المدرك بالخبر، عرف أن دنيا خارجه إنما هي نسخة طبق الأصل من دنيا داخله واسعة مكبرة، وعرفه بين دنييه، دنيا تواجده ودنيا وجوده، بقائمه بمعناه حجابا بين دنييه، عرفه بهيكَله سورا من المادة، بين حقه له، وحقيقته من حوله.

فإذا بقي في غفلته حتى بهت بساعته، حتى إذا ما نفخ في السور وخسف به وبداره الأرض، حتى سقطت الأسوار، وتجمعت الأنباء والأخبار، اجتمع السر والإشهار، تلاقت دنييا، وعرفه بعلمه بين يدي مولاه، ما استرحم، وما رحم، وما آمن وما قدر أن من يَرحم يُرحم، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، عرفَه وهو في تقييده تحت الزمن والطبيعة والمكان، إنما قطع بدنياه كرة خاسرة، ثمرتها له هي الآخرة الفاقرة، ورأى جزاء من قطعها كرة رابحة، راحما مرحوما، إنسانا مغفورا، مؤمنا ذاكرا مذكورا.

ورأى من ازدراه وما عرفه، للرحمة عبدا بعبوديته صار لها حوضا، فظهر للرحمة إناء ووعاء وفيضا، أفاض الرحمة عطاءً وجزاءً، وقام بالرحمة حكمة وأداءً.

فإذا ما تجاوز أيام الابتلاء، بُدلت سيئاته حسنات. ذلكم هو الإنسان لم ييأس من رحمة الله، يوم تكشفت له نفسه وقد هدي السبيل كافرا فغير ما بنفسه فغير الله ما به، وبدل سيئاته حسنات، وهو الذي أعجب بنفسه دوما وقد لبس جلباب الشيطان يوما، وقد نظره الناس يوم رأوه في جلبابه من الشيطان، يظهر بالعظمة والكبرياء والطغيان، فيبهرهم ما يروا من خدعة السلطان وإن كان يقوم في باطنه مظلما ظالما لنفسه بالغفلة والبهتان، فقالوا {يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون}[1]، فلما بُطش به وبداره، قال أهل جواره الحمد لله الذي ليس لنا مثل الذي لقارون. اليوم ننجيك ببدنك، لتكون لمن خلفك ممن تابعك آية برحمة.

هذا هو ناموس الله، في قصص يبديه فيما يعطي ويمنع، في دار التوقيت والاختبار لمن يضرب بهم للآخرين مثلا للعظة والاعتبار. إنه ناموس الفطرة في الناس، فيما يدرك وينكر الناس من جوهر وقشور الحياة بظروفهم في موقوت أيامهم، يقطعونها متعظين، أو تقطعهم جاهلين غافلين، بعيدا عن الإسلام والمسلمين.

إنهم يكبرون أهل الابتلاء بنعمة الدنيا ظاهرين، وينكرون على أهل البلاء أبوابا للآخرة قائمين، لأنهم لا يعرفون الحق ما يكون، ومن يكون، ومتى يكون، وأين يكون، فيعرفون أهله يوم يلاقون، ويشهدون. ولا يعرفون متى الجزَاء وما الوفاء، فيتقون ويستوفون.

{إني متوفيك، ورافعك إليَّ}[2] لأن الله يتوفى الأنفس حين موتها، وقد أماتك عنك المرة والمرة، وبعثك الكرة والكرة، فكنت مسيحا لمن أماتك وقياما لمن بعثك، ثم بعثك بمحمدك في آل حمده بالحق، فكنت عبدا لتمام عبوديتك، وكمال حقك، ثم اجتباك إليه، وأجلسك، على كرسي لك، في ملك لك من ممالكه، فكنت ربا راعيا لتمام حقيتك وهو يوما معيدك، لتحدث الناس بجديدك عن قديمك.

أظهرك من وراء حجاب أديمك بآدمك وكوثر أوادمك متحدثا من الصالحين، كلما من الأرض ولدت، وكلما بالحق للبشرية بُعثت، وفي الله استشهدت، وله بالحياة طلبت، وعلى نفسك من التراب أنكرت فكنت يتيما آواك وضالا هداك وعائلا أغناك، فكنت من الله حقا ولله اسما ومنه كلمة وإرادة، وفيه روحا وحقا.

هذا هو أمر الإنسان بالحق وأمر ابن الإنسان، مصطفى اصطفاء أبيه، أو مكرما على ما أكرم أخوته من أبناء فيه، يطغى، ويفتن، ثم برحمته يُوقَظ، فيدرك ويرسل، فيستغفر، وله الله يغفر (إذا لم تذنبوا

وتستغفروا، فيغفر الله لكم، لذهب الله بكم وأتى بقوم آخرين يذنبون ويستغفرون فيغفر الله لهم)[٣]، {يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا}[٤]، {إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}[٥].

{استغفروا ربكم إنه كان غفارا، يرسل السماء عليكم مدرارا، ويمددكم بأموال وبنين، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا}[٦]، ويورثكم الأرض فتتبوؤون من الجنة حيث تشاؤون، يوم أنكم متارب الوجود تملكون، وأنفسكم دورا لكم تسمون، وكراسي لظهور سلطانكم تعرفون، على عروش الروح لبنات بنائها من الناس لكم منكم لها تجمعون، وبالحق على عروش أنفسكم تستوون، أسماء لله تتجمعون، وبصفات الله تتحلون، والأسماء الحسنى له تدعون.

(ليس الشأن أن تعرف ما هو الاسم الأعظم، ولكن الشأن أن تكون أنت الاسم الأعظم)[٧]، فتكون وجها لله، باقيا، غير فانٍ، زَهق باطله من الفناء والتوقيت، وبُعث بحقه من البقاء والتأبيد، {كل من عليها فان ويبقى وجه ربك، ذو الجلال والإكرام}[٨]، بيتا موضوعا، عَلَمًا على بيت مرفوع.

(يطول بنا إسناد عنعنة حتى إلى الذات الأعلى)[٩]، نشهدها بحكم الناموس يوم ندخل في الحجاب الأعظم لها، من بيت موضوع باسم ذات أدنى، ذكرا محدثا لله، لذكر قديم لله، لذكر أقدم فأقدم، في الله ذي المعارج، أو في بيت مرفوع، يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده.

والبيت المرفوع وأهله، والبيت الموضوع وأهله، الكل في الله الواحد الأحد، في الله الفرد الصمد، في الله الوجود المنفرد، يدرك أمره كلما قام فرده بأحديته بإنسانه، إنسانا لله، وعبدا لله، وحقا لله، من عباد لله، من حقائق لله، من ذكر متعدد لا حصر له، يذكر به الله في بيوت ترفع وتوضع، يذكر فيها اسم الله برجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم بالغدو والآصال وليسوا من الغافلين، يذكرون ربهم في أنفسهم في معارج الله بأسمائه ربا فاعلا، طلبا للمطلق يعرفونه أقرب إليهم من حبل الوريد، ومعهم أينما كانوا بالأعلى فالأعلى عليهم ربا راعيا وحقا مدانيا. يرددون بين الناس ما عرفوا، رسلا من الله بينهم عرفوا، يمكنون الناس لأنفسهم بما به شَرَفوا.

ذلكم دين الفطرة، على ما جاء به رسول الفطرة، وعلى ما عرَّفه كتاب الفطرة، وعلى ما قامه الناس، قياما بالفطرة، في فاطر السماوات والأرض، صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة، رجل سلم لرجل، في رجل رشيد كلمة لله، وروحا منه تجسد إلى صورة بذات، أو انطلق نورا وقام سماوات.

فإلى متى نتمنى ما لقارون؟ وإلى متى ينتظرنا الوعد والوعيد، فلا نفيق إلا يوم نرى ما وقع لقارون؟ مَن يكفر بالطاغوت ويؤمِن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها. وكم وقع ما وقع لقارون ولا نفيق، ولا نؤمن بالله ولا بالطريق!

إن من وصل نفسه برسول الله، وصل نفسه بالعروة الوثقى لا انفصام لها. إن من صلى على النبي، كان النبي أولى به من نفسه. إن من دخلت نفسه مطمئنة، صِدّيقة، عالِمة مفرقة بين الحق والباطل، دخلت نفس عبد لله، نفس عبد للرحمن يمشي على الأرض هونا، لا يسفه أحلام الناس في دينهم، ولا يجاري الناس في دنياهم، ولا يمقت الناس متواصيا بحق، ولا يضطر الناس آمرا بمعروف. فهو رحمة للناس أبرز، ورحمة للناس ظهر، ورحمة للناس مع الناس عامل.

نفس كلية تدخله النفوس المطمئنة، فيحتويها، حواءٌ حاوية لبنيها، فتصبح النفوس الحية به أجنة نامية فيه إلى جنة قائمها، باستقامتها على أمره، في جهره وسره لجهرها وسرها، قدوة لها بكلماته، موقظًا لها بآياته، يُمسك منها الأعنة، ويقودها إلى أعلى من الجنة، يخلصها ويقيها من أسفله من النار، فهو سيد الجنة والنار في موجوده لنفسه، وهو المسجد والمزار والطواف، وهو النُصب والحوض والاغتراف، لمتواجده لأمره، وهو الحرم للأحرار، وهو ساحة المطلق والدار لعتقى العقول من الأحمال والأوزار.

وهو بالأعلى القيوم والقائم على قائم الحياة، وحي النفوس ومتحرر العقول، وهو الحارث الزارع لأرض القلوب، وهو الغارس الحاصد لأرض الوجود، وهو الجامع الساري لساحات الشهود.

هل عرف الناس أنفسهم بالكنود، فعرفوا ربهم عليهم بالسهر والوجود، فطلبوهم إلى ساحته، فدانتهم رحمته، فعرفوا الخبير، ولاقوا الدليل، وبعثوا الرسول والسبيل؟

عرفوا أن وجودهم، لواجبه موجودا، عَلَما على واجب الوجود خالقا معبودا، أمر فطري، وناموس حقي، وعلموهم المفتقرين للدليل إلى رب العالمين، المستغنين عن الدليل على رب العالمين، يَعرفونه في أنفسهم يوم يجتمعون على مفتاح الكنوز لضمائرهم، ولعقولهم، ولقلوبهم، ولوعيهم، متجسدا لهم في الشهود، بعثا بوجود لواجب الوجود، برسول الله ربا للعالمين.

واعلموا أن رسول الله فيكم ومن بينكم، واعلموا أن فيكم رسول الله في أنفسكم، أفلا في أنفسكم تبصرون؟ إن الله معكم ورسوله فيكم، وأقرب إليكم من حبل الوريد، يوم أنكم لهم تطلبون، ولمطلق الله تسجدون، ولوجه الله أنفسكم تعبِّدون، ما شهدتم لله وجها، أينما تولون، فكيف تكونون وجوها لله متحققين، أو بوجهه مسفرين، وأنتم على مشهود وجهه لكم تنكرون، فأنتم وجوه لوجوه فيه تتراءون؟

فماذا عرفنا من الإسلام، نزعم الانتساب إليه، والقيام فيه؟ وماذا عرفنا عن دين الفطرة، نقومه غير مدركيه، وتقومنا الفطرة نكدين، غير مصدقين ولأنفسنا مضيعين؟

إن الله معنا، قائم على كل نفس، ومن ورائها بإحاطته، وأقرب إليها من حبل الوريد. هل هذا قول معجم، أو كلام لا يفهم، ولا يقوم ولا يُعلم؟ قامه من بُعث به، وعلمه من تعلم فعلم فيه، فنفرنا منا حقائق، وفتنا بنا خلائق.

الله لا إله إلا هو الحي القيوم

اللهم يا من يجمعنا.. اللهم يا من هو في دوام جامعنا، وفي يوم معلوم يُشهِدنا.. اللهم يا من بالرحمة أوجدنا.. اللهم يا من بالحكمة أعدنا وطورنا.. اللهم يا من بدأنا خلقا، وينتهي بنا إليه حقا، ومن الباطل يخلصنا، ولنفسه يستخلصنا، وبقائم الحق بنا يقومنا.. اللهم كن لنا في الصغير والكبير من شأننا.

اللهم لأنفسنا لا تدعنا، وإلى أرض قيامنا لا ترجعنا، وعلى أهل سماواتك مقبولين عندهم فاجمعنا، واكشف حجاب الغفلة عنا، وخلصنا من أوزارنا منا، واكشف لنا أسرارنا، وأقرئنا كتبنا، واجمعنا كتابا جامعا لنا، عبادا لك مصطفين، وكلمات لك مُشهرين، وحقائق فيك مجددين، بك قائمين، وحقائق منك مبعوثين، ومُرسلين، ولرسولك متابعين، وبه فيه محمولين، إلى مطلق حضرتك معه ساعين، قائد ركب عوالمك إليك في العالمين، له منسوبين، وبه إليك منتسبين، لا تحرمنا متابعته في الدنيا والدين، وفي الآخرة وفي ركب العالمين.

اللهم به فارحمنا.. اللهم به فولِ أمورنا خيارنا.. اللهم به فتواجدنا.. اللهم به فاسعدنا.. اللهم به إليك فينا أرجعنا.

لا إله إلا أنت سبحانك، إنا كنا من الظالمين.

أضواء على الطريق

للكاتب الإنجليزي المعروف هـ. ج. ولز من مقال تحت عنوان (من أنا):

(من أنا ومن ذلك الإنسان المدعو ولز؟)

لقد حاولت أن أفكر في شخصي، وفي مجموعة الخواطر والأفكار التي يتألف منها كياني، فعدت بخيبة مُرة، تركت في فؤادي أعمق الحسرات.

إن شخصيتي ما تنفك تتبدل وتتحول، وما ينفك ماضيها يبتعد عني، ويتبدد ويتلاشى في جوف الزمن السحيق. ها هي آثار اصطدامي بزجاجة في طفولتي باقية. ولكن أين هي الآلام والأفكار والعواطف

التي اقترنت بالحادث؟ كل ذلك قد مات وليس في مقدوري أن أستعيده. وإذن فليس في وسعي أن أقرر أن ولز الطفل الذي فكر وأحس وتألم في ظرف من الظروف هو ولز العاقل الرصين الذي يجلس الساعة على مكتبه مقطوع الصلة بماضيه. يفكر في هذا الماضي على غير جدوى. فولز القديم قد مات ولكن من هو ولز الحديث؟ من هو ولز الماثل في قلبي وعقلي وحسي وضميري؟ هل هو حي حقا كما يخيل إلىّ وكما يعتقد الكثيرون؟

الواقع أن أفكاري قد انحدرت إليَّ من الآخرين، وأني متصل بالنوع الذي أنتمي إليه وبالكتلة التي أنتسب إليها، وبالمجموع الذي أنا جزء منه.

ولكن إذا كان بدني ثقيل الوطأة عليَّ، دخيلا على شخصي، وإذا كان شخصي المعنوي نفسه لا ينفك يتغير ويتبدل مستمدا قواه من الغير، فمن أنا؟ وما هي حقيقتي؟ وما هو اعتقادي في مصير الجسم وفي مصير الشخصية الإنسانية؟

يلوح لي أن الجسم يفنى، وأن شخصية الفرد المعنوية فناء يمشي إلى فناء. وأما عقيدتي فهي أن الجوهر الباقي هو مجموع الفكر البشري النامي، ومجموع الإرادة البشرية المتفوقة، ومجموع الجهود الفكرية والنفسية التي يقوم بها الكل، والتي يمثل كل فرد جزءا منها.

فالناس إلى فناء، ولكن الإنسان هو الباقي. والإنسان هو روح المجموع، هو (لا شخصية المجموع)، هو سر المجموع وعبقريته، ففي الإنسان قوة أقوى منه. فالإنسان الأعلى ليس شيئا في نفسه، وقيمته تنحصر في أن تفوق المجموع قد تمثل فيه، وأن عبقرية المجموع قد حلت عليه، وأن شعوره بضرورة إنماء مواهبه، ينبع لا من نفسه، بل من المجموع، وينصب لا في نفسه، بل في حياة المجموع. فجهادنا يجب أن ينصرف إلى خدمة النوع الخالد أو الإنسان الخالد لا إلى خدمة ذاتنا المضمحلة الفانية التي لا قيمة لها من حيث هي ذات، بشرية منفصلة).

مصادر التوثيق والتحقيق

١ سورة القصص - ٧٩

٢ سورة آل عمران - ٥٥

٣ حديث شريف: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ، فَيَغْفِرُ لهمْ." صحيح مسلم.

٤ سورة الزمر - ٥٣

٥ سورة النساء - ٤٨

٦ سورة نوح - ١٠-١٢

٧ مقولة للسيد أبي الحسن الشاذلي.

٨ سورة الرحمن - ٢٦-٢٧

٩ مقولة للشيخ محيي الدين بن عربي في الفتوحات المكية: فإن نظرت إلى الآلات طال بنا *** إسناد عنعنة حتى إلى الذات.